كشف اللثام
عن
تصوف المظلل بالغمام

صلى الله عليه وآله وسلم

بحوث في تأصيل التصوف من الكتاب والسنة

إعـــداد

العبد الفقير

الدكتور محمد سيد سلطان عبد الرحيم

المدرس بجامعة الأزهر والجامع الأزهر الشريف

الناشر

دار جوامع الكلم

١٧ شارع الشيخ صالح الجعفري ـ الدراسة ـ القاهرة

تليفون ٢٥٨٩٨٠٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشـــر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
خير خلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه الطيبين

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

« ١٢٥ : النحل »

اختلف الناس فى التصوف والمتصوفين لفظا ومعنى ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ووفقه إلى طريق الحق والقول بالصدق .

وهكذا اختلط الأمر على نقاد التصوف وتدخل فى الأمر كل من لا يفهم وليس له مكان لا فى العير ولا فى النفير وكل جاهل أو حقود أو موتور أو صاحب مصلحة واللعنة على حب المال الذى يغير الذمم والأخلاق ويؤدى إلى الكذب والنفاق .

وهكذا كل ما هو حق وكل ما هو صدق وكل ما هو نور وهدى يختلف الناس حوله بين مصدق ومتبع ومكذب ومبتعد وبين حاقد يعرف الحق ولكن لأسباب الطمع يهاجم ولكن بأسلحة فاسدة سوف يظهر على مدى الأيام عوارها وزيفها أو عدم نفعها .

وحسبك ماجاء به رسول الحق وعلم الهدى بالضياء والنور المبين والقرآن الشافى لما فى الصدور ، وقد أنزل عليه القرآن المجيد واضح

البينات ظاهر الآيات المنزل على العرب العرباء ولكن عيون الخفافيش التى لا ترى إلا فى الظلام أنكرت ثم أشركت .

أقول اختلف الناس فى التصوف وفى المتصوفين هناك من جهل اللفظ .. لفظ التصوف الحقيقى وعلى ما يدل وهناك من جهل المعنى المدلول عليه جهلوا لغتهم ولم يعرفوا أسرارها - انظر مثلا لفظ (عين) إلى ما تدل .. قد تكون هى العين الباصرة وقد تكون عين الماء وقد يكون الذهب وحتى الجاسوس يدعى عينا ، وهذا ما يسميه البلاغيون الاشتراك اللفظى -فاللفظ المنطوق واحد والمعانى مختلفة .

انظر معى أيضا إلى لفظ السيف والحسام والمهند إلى آخره تجد الألفاظ مختلفة أما المعنى فواحد - وهذا ما يسميه أهل البلاغة بالترادف.

ما لم تكن تعلم أسرار اللغة فلا تحكم على شىء .. ومن هنا طُلب من مفسر القرآن الكريم أن يكون ملما بأكثر من عشرات العلوم المتصلة بالشريعة والحقيقة وغيرهما .

أقول كل هذا لأن بعض الناس اهتموا باللفظ ولم يعلموا ما يدل عليه اللفظ بالضبط ..

إذا كان اسم التصوف من معانيه صفاء النفس التى هى ما يهم الإنسان الحقيقى والارتقاء بالروح التى هى الجزء الأسمى فى الإنسان فهل يكون هناك أصفى ولا أنقى من قلب رسول الإنسانية وهادى البشرية وهل يكون هناك أيضا أرقى من روحه ..

وهيا بنا لنثبت فى هذا الكتاب أن كل الأقوال بل والمقصود الأسمى

هو الأفعال . أقوال وأفعال الصوفية ظاهرها وباطنها مستوحاة من مشكاة أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلك التي أشرقت عليه من نور ربه فكان ما أنزل عليه من كتاب رب العالمين القرآن المجيد .

فقد كان خلقه صلى الله عليه وآله وسلم هو القرآن الكريم ..

يقول سيدى صاحب الإحياء (الإمام أبو حامد الغزالى) فى كتابه المنقذ من الضلال طبعة مكتبة الجندى ص ٤٩ ما نصه :

(لقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

لقد جاء الدين الإسلامى هاديا للناس فى دنياهم وما ينفعهم فيها وما يجب عليهم حتى تمضى حياتهم فى سلام وأمان ويكون الجزاء الأوفى فى أخراهم .

جاء بالتوحيد الذى أهم أركانه لا إله إلا الله محمد رسول الله ..

وهذا هو علم التوحيد أو ما يسمونه بعلم الكلام ..

وقد قام به الأشعرى والماتريدى وزملاؤهما رحمهم الله تعالى ..

ثم كان لابد من علم الفقه عبادات ومعاملات وتبحر فيه الأئمة الأربعة رضى الله تعالى عنهم أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل رضى الله عنهم.

ولما كان الدين الإسلامى قائما على الإيمان ثم الأركان كان من أركانه أيضا والتى لا يقوم إلا عليها هو الإحسان إحسان الإيمان فالإيمان كما قال من يعتمد على كلامه يزيد وينقص ومن هنا كان الإحسان وكان التصوف الذروة فى الإخلاص واتصال القلب بالخالق : التربية الظاهرة والباطنة - المراقبة - المحاسبة - التوبة - الإنابة - الذكر - الفكر - المحبة - التوكل - الرضا - التسليم - الزهد - الصبر - الإيثار - الصدق - المجاهدة - مخالفة الهوى والنفس - النفس اللوامة - النفس المطمئنة ..

هذه هى الأخلاق التى دعا إليها الله تعالى والتى التزمها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يتأخر عنها قيد شعرة هى نفس الأخلاق التى دعا إليها التصوف والتزمها الصوفيون الحقيقيون لا الأدعياء الذين أساءوا إلى التصوف ما لم يسئ له أعداؤه الظاهرون .

هذا ما قام عليه بنيان التصوف وأركانه فما قام إلا على أساس من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فما السادة الصوفيون إلا قوم جاهدوا أنفسهم فهداهم الله تعالى :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾

ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف ..

لقد وجد التصوف من أول يوم وجد الإسلام بل كان من فعل الرسول قبل نزول الوحى بتحنثه الأيام ذوات العـــدد فى خلوة من الناس .

والتصوف إن لم يكن موجودا بالاسم - وقد ذكرنا أن الألفاظ لا يعتمد عليها من غير معانيها - إلا أن التصوف كان موجودا بحكم الحال والواقع

المُعاش والتطبيق العملى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الأطهار .

ولا أكون على خطأ إذا ذكرت أن التصوف كان هو الطابع الواضح والمميز لرسل الله كلهم وأنبيائه قبل الإسلام ونبى الإسلام ..

وهيا معى أيها القارئ المسلم لنضيء هذه المقدمة بأقوال بعض العلماء المشهورين والذين اتفق على صدق قولهم مؤيدو الصوفية والمنكرون للتصوف .

الإمام مالك رضى الله تعالى عنه عالم المدينة يقول قولته الشهيرة الصادقة :

(من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق)وهذا ما اتصف به أهل التصوف الحقيقيون.

وقد زعم المنكرون أن التصوف لم يُعرف بين المسلمين إلا بعد انقراض أهل القرون المفضلة .

وقد رد أهل العلم المحققون على هذه الدعوى الكاذبة بالتحقيق العلمى فقالوا إن عبارة الإمام مالك رواها كبار علماء المذهب المالكى عن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه سلفا عن خلف وهى موجودة فى :

١) حاشية العلامة العدوى على شرح الزرقانى على متن العزية فى الفقه المالكى جـ٣/١٩٥ .

٢) موجودة فى كتاب : شرح عين العلم للإمام ملا على القارى جـ ١/٣٣ .

٣) وعلى مستوى كبار المؤرخين ذكرها ابن خلدون فى كتاب : شفاء السائل لتهذيب المسائل.

٤) ذكرها الشيخ أحمد زروق فى كتابه قواعد التصوف ص ١٣ قاعدة ٤ .

٥) وذكرها التنائى فى شرحه على ابن رشد ص ٥ ..

أيضا ذكرها الشيخ ميارة فى شرحه على ابن عاشر

وكل هؤلاء لا يطلقون عليهم اسم المتصوفين سوى الشيخ أحمد زووق

وإن كنا قد ذكرنا بعضهم إلا أن من ذكر قول الإمام مالك العدد العديد الذى يخرج عن الحصر .

وهذا رجل ممن يرجع إليه أعداء التصوف رجل عرف الحقيقة فأذاعها .. رجل نظر بعين الإنصاف دار مع الحق حيث دار إنه شيخ الإسلام ابن تيمية يقول فيما يقوله المتصوفون عن الشريعة والطريقة والحقيقة ..

يقول : ... والحقيقة حقيقة الدين ، دين رب العالمين .. هى ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج ، فالشرعة هى الشريعة قال تعالى: ﴿ لكُلٍ جعلنا منكُم شرْعَةً ومنْهاجا ﴾ ، المائدة : ٤٨ ..

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جعلْناك علىٰ شريعةٍ منَ الأمْرِ فاتَّبعْها ولا تتَّبعْ أهْواء الَّذين لا يعْلَمُون * إنَّهُمْ لن يُغْنُوا عنك من اللَّه شيْئًا وإنَّ الظَّالمين بعضُهُمْ أوْلياءُ بعضٍ واللَّهُ وليُّ الْمُتَّقين ﴾ ، الجاثية : ١٨ ، ١٩ ، .

والمنهاج هو الطريق ، قال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ ، الجن : ١٦ ، ١٧ ..

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر ، والمنهاج هو الطريق الذى سلك فيه ، والغاية المقصودة هى حقيقة الدين ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وهى حقيقة دين الإسلام .

وهاهو الشيخ ابن تيمية - رحمه الله تعالى - قد قسم الدين إلى شريعة وطريقة وحقيقة ..

فهل هذا يُعَدُّ إحداثا فى الدين بما ليس منه أم هو الفهم الصحيح لدين الإسلام كما فهمه الأئمة الأعلام من قبل الشيخ ابن تيمية ومن بعده .

وعودا على بدء نذكر ما قاله المؤرخ المجمع على صدقه (ابن خلدون) المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع - عند كلامه عن التصوف :

(وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العاكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة والعبادة ، وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية) : مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٨ . .

وإذا تركنا بعض ما قاله أيضا بعض المتقدمين فلنذكر قول علم دينى من أعلام المحدثين العلامة الإمام (محمد أبو زهرة) .

لا أود أن أتعرض لنشأة التصوف فى الإسلام وقبل الإسلام ، ولكنى لا أستطيع أن أقول إن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يكن متصوفا ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن من أمتى محدثين ومكلمين وإن عمر منهم) رواه البخارى فى صحيحه ..

وفى صحيح مسلم : (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر) .

والذى كان يعتقد فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان من أقرب أصحابه إلى الله ، حتى إنه عندما كان ذاهبا إلى العمرة وجه إليه القول : (لا تنسنا من دعائك يا أخى) .. ، رواه أبو داود والترمذى ولفظه : (أى أخى أشركنا فى دعائك ولا تنسنا) ، .

ويقول تعالى وليس بعد قول الله تعالى قول :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾

، العنكبوت : ٦٩ ،

وما كان أغنانا عن كل ما ذكرناه فقد أوضح سيادة الأستاذ المؤلف وقد زاد وأفاد ولكن أردنا أن يكون لنا ولو نصيب صغير من الثواب فأثبتنا ما أثبتناه كى نضىء ولو شمعة فى هذا الطريق نرجو ثوابها من الهادى إلى طريق الحق وسبيل النور ..

اللهـم يا سامـع النـداء يا مستجيب الدعـاء انفع بهـذا الكتاب كل من قرأه فاستفاد ، وهو - إن شاء الله مستفيد - واجعـل ثوابه لصاحب فكرته وللأستاذ الفاضل مؤلفه ولقرائـه ولكل من بـذل فيه جهدا ونحن معهم يا كريم ..

اللهم واجعلنا من الذين يقولون فيفعلون ويفعلون فيخلصون ويخلصون فيُقْبلون .

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ..

وسـلام على المرسلين والحمـد لله رب العالمين .

الناشـر

دار جـوامـع الكلـم

جعلها الله جامعة لخدمة العلم والدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافى نعمه ويكافئ مزيده ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ، وعلى أصحابه الغر الميامين الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون .. وارض اللّهمّ عن التابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وعنا معهم وفيهم بكرمك يا أكرم الأكرمين ..

ثم أما بعد

فهذا كتاب عن التصوف السنى الصحيح الذى يشرف بنسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى كل موضوع تناوله ، وضعت له هذا العنوان الدقيق :

[كشف اللثام عن تصوف المظلل بالغمام صلى الله عليه واله وسلم]

والفضل فى فكرة هذا الكتاب المبارك ترجع إلى مكتبة ـ دار جوامع الكلم ـ فقد كان لىَ عظيم الشرف أن وقع اختيارها علىَ فى أن أضع كتاباً أوضح فيه للناس أن أصول علم السلوك (التصوف) مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم صل الله عليه وآله وسلم .

والذى دعانى لتلبية طلب هذه الدار الرائدة أمور منها :

١) حاجة الحركة الإسلامية إلى نظرية واضحة عن التصوف الإسلامى تعصم سالكه من الانحراف فى تياره المغالى ، أو فى تياره المعادى على غير بصيرة ، ومن ثم كان الفقه فيه كالفقه فى أمور الشريعة الإسلامية من عبادات ومعاملات وأحوال شخصية .

٢) ندرة الكتاب الصوفى المحرر على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة والمذاهب الفقهية المعروفة ، وذلك لأن كثيرا من كتب التصوف داخلها شىء من الدس والتحريف ، فتوقع القارئ فى حيرة من أمره ، فكان لابد من كتب تضع الأمور فى مواضعها ..

ولعل هذا الكتاب يكون منها بحول الله تعالى وقوته ومشيئته ..

٣) إن كثيرا ممن كتبوا فى علم التصوف جعلوه علما خاصا ، مع أنه العلم الذى يطالب به كل إنسان مسلم ، كصحة القلب ، وتزكية النفس، وتطهيرها من كل مرض باطنى يصيبها ، وغير ذلك من أمور كلها تكليفية فى حق عامة الناس .

٤) ثم إن هذا العلم قد بُلى بأناس عادوه، وأخرجوا أتباعه والمشتغلين به من زمرة المسلمين، فحكموا عليهم بالكفر تارة، والزندقة تارة أخرى ، كما ينسبونه إلى البوذية أو المجوسية أو الرهبانية أو الشيعة المغالين ... إلى آخر ما يتقولون ويهرفون بما لا يعرفون ..

فكان لابد من بيان كافٍ شافٍ حول هذا العلم وقضاياه، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة ..

ولقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقدم علم السلوك (التصوف) محرّرا على ضوء الكتاب والسنة ، ومذاهب أهل الحق الذين ساروا على منهاج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى سلوكه الذى يتمثل فى القرآن الكريم ، وذلك لإيمانى أن هذا وحده هو الذى يجب أن يكون ، وأن يصير إليه أمر الناس جميعاً .

فالسير إلى الله تعالى لا يمكن أن يُلْغَى ، بل يجب أن يكون حثيثا، ولكن ينبغى أن يحرر ويدقق ، وتحرر مسائله وقضاياه تحريراً دقيقاً ، فليس الصوفية ولا غيرهم معصومين ، والمعصوم هو الكتاب والسنة ، وقديما قال أكبر أعلام الصوفية فى زمانه أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعالى ـ :

، ربما وقعت النكتة من كلام القوم فى قلبى فلا أقبلها إلا بشاهدين عدل من الكتاب والسنة ، لأن الله عز وجل ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لى فيما سوى ذلك ، ..

ومن هنا ندرك خطأ الصوفى الذى يريد أن يجعل كل حرف قاله صوفى معصوماً ، والذى يريد أن يجعل لكتب الصوفية من العصمة ما للكتاب والسنة .

إن أمثال هؤلاء لا فارق بينهم وبين غلاة اليهود والنصارى الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ، التوبة : ٣١ ، فإذا كان هذا الحكم فى أمثال هؤلاء فكذلك

الحكم فى الذين يرفضون أصل علم التصوف، وما فيه ؛ لمجرد أن وجد خطأ فيه هو أن هؤلاء يجانبون الرأى الصحيح فى هذا الموضوع ؛ فيقابلون خطأ بخطأ ويتصرفون برد فعل انفعالى غير عقلى ولا متزن .

إن علم السلوك (التصوف)علم على صدق التوجه إلى الله تعالى بالعبادة والزهد، على مذاهب أهل السنة والجماعة .

قال أبو القاسم القشيرى فى رسالته بعد أن ترجم لبعض أعلام التصوف :

« هذا هو ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم فى هذا الموضوع التنبيه على أنهم مجمعون على تعظيم الشريعة ، متصفون بسلوك طرق الرياضة ، مقيمون على متابعة السنة ، غير مخلين بشىء من آداب الديانة ، متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ، ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفتريا على الله تعالى فيما يدعيه مفتونا هلك فى نفسه ، وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله » .

وقال الشيخ زروق فى قواعده ، فغلاة المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين ، وكالمطعون عليهم من المتفيهقين، يرد قولهم، ويجتنب فعلهم، ولا يترك المذهب الحق الثابت بنسبتهم له،وظهورهم فيه والله تعالى أعلم ».

وقال أيضا : قال ابن فورك رحمه الله تعالى: الغلط فى إدخال ألف كافر بشبهة إسلامه ، ولا الغلط فى إخراج مؤمن واحد بشبهة ظهرت منه.

هذا فى العقائد ، وأما فى الفقه فقال الشيخ زروق فى قواعده :

« ولا تجعلوا لأحد من أهل الظاهر حجة على أهل الباطن ، قلت بل يحقون على أن يجعلوا أهل الظاهر حجة لهم لا عليهم ، إذ كل باطن مجرد عن الظاهر باطل ، والحقيقة ما عقد بالشريعة .. فافهم » .

وقال أيضا : فمن ثَم صح إنكار الفقيه على الصوفى ، ولا يصح إنكار الصوفى على الفقيه ، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه، والاكتفاء به دونه ، ولم يكف التصوف عن الفقه ، بل لايصح دونه ، ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به ، وإن كان أعلى منه مرتبة ، فهو أسلم وأعم منه مصلحة.

ولذلك قيل : كن فقيها صوفيا ، ولا تكن صوفيا فقيها ..

وصوفى الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم ، لأن صوفى الفقهاء قد تحقق بالتصوف ، حالا ، وعملا ، وذوقا .

بخلاف فقيه الصوفية فإنه المتمكن من علمه وحاله ، ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح ، وذوق صريح .

وأما التزامهم بالكتاب والسنة ، وحرصهم على المتابعة فقد قال الشيخ زروق : ففروعهم راجعة لاتباع السنة ، والتسليم للحكم بملاحظة الحكمة .

« قوم أثبتوا المعانى ، وحققوا المبانى ، وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى ، وهم الصوفية المحققون ، والأئمة المدققون ، لا الباطنية ، الذين حملوا الكل على الإشارة، فهم لم يثبتوا المعنى فخرجوا عن الملة ، ورفضوا الدين كله.. نسأل الله تعالى العافية بمنه » ..

هذا ونسأل الله تعالى أن يجعل النفع بهذا الكتاب عاماً ، وأن يجعله حيثما حل رحمة لعباده، وبركة فى بلاده ، وأن يحميه من كل جاهل

يتحامل ، أو حاسد يعرف الحق ويتجاهل .. كما نسأله أن يطهر أعمالنا من الرياء ، ويطهر قلوبنا من النفاق ، ويطهر ألسنتنا من الكذب إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله ..

العبد الفقير

محمد سيد سلطان عبد الرحيم

خادم العلم الشريف والتصوف الصحيح

بنى عدى فى ١٧من جمادى الأولى ١٤٣١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

في بيان نشأة التصوف الإسلامي وتدرجه

الدين والتصوف :

لعله من نافلة القول أن نشير إلى الصلة الوثيقة بين الدين وبين التصوف ؛ إذ كان المصدر الذى ينبعان منه مصدراً واحداً ، هو التعرف على الله والإيمان به ، والتقرب إليه بالعبادات والطاعات، ومجاهدة النفس ومغالبة الهوى؛ فالدين عقيدة وعمل ، والتصوف عقيدة وعمل ، ولا خلاف بينهما فى مناط العقيدة ، وإن اختلفا فى بعض جوانب العمل، ومع هذا فإن الغاية والمتجه واحد .. كلاهما يتجه إلى الله تعالى ، ويسعى إلى مرضاته جل جلاله وتعالت عظمته ..

وغاية ما بين الدين والتصوف من فرق هو الاختلاف فى الوسيلة ؛ إذ الدين يغلب عمل الجوارح فى حين لا يغفل مراقبة القلب.. بينما يغلب المتصوف مراقبة القلب على حين لا يغفل عمل الجوارح فرق فى الشكل لاغير ..

إذن فالتصوف هو الدين، أو صورة مشرقة من صور الدين تغلب فيه عناصر الروح على كثافة المادة ، ويتولى فيه القلب مكان القيادة ، بل مكان العقل فى أغلب الأوقات ..

الدين فطرة :

يقع الإيمان فى قلب المؤمنين عن فطرة سليمة ، تلك التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[١].

والتى قررها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء[٢] هل تحسون فيها من جدعاء[٣] ؟ ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾..

وفى الحديث القدسى الذى يرويه النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه عز وجل أنه قال : « إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم »[٤].

وهذه الفطرة عند كثير من المفسرين هى الميثاق الذى أخذه الله بربوبيته على بنى آدم قبل أن يوجدوا ، وهم فى عالم الذر .. قال تعالى: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا

---

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) أى كاملة الخلقة .

(٣) أى ناقصة الأنف أو الأذن أو هل ترون فى ولد البهيمة حينما تلده نقصا ؟ كذلك يولد الإنسان على الفطرة .

(٤) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

غافلين * أَوْ تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ (١).

ثم جاء رسل الله - عليهم السلام - فأكدوا هذا الإيمان ، ووثقوه؛ فاستقام المؤمنون على إيمانهم ، ورضوا بالله ربّاً ، وبالتوحيد ديناً ذلك هو الدين الخالص والإيمان الحق ..

ومع هذا فإن هذا الدين يقع فى نفوس المؤمنين على درجات متفاوتة أشد التفاوت ، منه القوى الراسخ ، ومنه الهزيل الضعيف، وبين هذا وذاك درجات ودرجات ..

والمؤمن فى أقوى درجات الإيمان ، وإن استسلم عقله يظل قلبه دائما منشرقا إلى مواطن الاطمئنان الذى يجد معه برد السكينة واليقين.. إنه مع إيمانه القوى الراسخ فى حاجة إلى نفحة من نفحات السماء تقطع الطريق على نزعات النفس ، ووساوس الشيطان .

وقد أرانا الله تعالى المثل فى خليله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو من هو فى إيمانه ويقينه الكامل ؛ إذ قال إبراهيم مخاطبا ربه ﴿ وإذْ قَالَ إبراهيمُ ربِّ أرني كيفَ تُحيِي الْموتَى قَالَ أولَمْ تُؤْمن قَالَ بلَىٰ ولكن ليطْمئنَّ قَلْبي ﴾(٢).. فاطمئنان القلب شىء أقوى من الإيمان ، وأبلغ منه وسيدنا موسى - عليه السلام - يقف هذا الموقف إذ يقول: ﴿ ربِّ أرني أنظُرْ إليْكَ ﴾(٣) وما ذاك إلا ليملأ قلبه طمأنينة لا يطوف بعدها طائف من شك!

---

(١) الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣.
(٢) البقرة: ٢٦٠ .
(٣) الأعراف ١٤٣.